

سره فحوالر مجما (الوالم البفظاره) :

## قصة الساحر والتاجر

[ مهذاة إلى أعلام الـياسة وأساطين الـاقتصاد ]

للأستاذ كامل كيلاني

—•••••—

نقل القصة التالية عن المقدمة النفيسة التي افتتح بها « أبو الفصن جحا » خواتره التي أهداها إلى ولديه « جحوان » و« جحيية ». وقد ضمها مخطوط جحوى نفيس ، لعله مكتوب بخط أحد معاصريه أو بخط ابن أخيه : أبي السَّهْل : « طارق بن سهْل بن ثابت » .

وسيرى قارى القصة كيف استطاع الساحر أن يحول الدنانير الذهبية ذات الرنين القان والبريق الخلاب ، — منذ مائتين وألف من السنين — ورقاً عادياً لا قيمة له ولا خطر ، قبل أن يهتدى إلى ذلك أعلام السياسة وأساطين الاقتصاد في هذا العصر ، الذين استطاعوا — بفنون سحرم — أن يحولوا الملايين من أموال حلفائهم ورقاً لا نفع فيه ولا غناء ، ولا قدرة له على البيع ولا الشراء . كما استطاعوا من قبل — بفنون حقدم — أن يحولوا ثروة العالم صواعق ومهلكات تدمر الدنيا بمن فيها ، وتفسد المدن بساكنيها ، وتحيل الجبال الشم أودية ووهادا ، والأحياء — من الحيوان والإنسان — فحماً ورماداً .

قال « أبو الفصن عبد الله دجين بن الثابت » الملقب بجحا : « كنت في زمن الطفولة البياكر حين وقعت حوادث هذه القصة لأبي عوف بن جعفر ، وكان تاجراً أميناً معروفاً بين الناس بالورع والتقوى ، موسوفاً بالبر والإحسان ، وهو من جيراننا الأقرين ، وكان جزاراً ناجحاً في تجارته ، فلم يلبث أن ذاع صيته ، واستفاضت الأحاديث الحسنة عما يسديه إلى الفقراء والموزين من فنون البر سراً وعلانية .

وذا صباح وقد عليه شيخ وقور مهيب الطلعة رائح السمت يدعى « أبا تميم بن زهير » قد جلل الشيب رأسه ولحيته ، وتأنق وجهه بشراً ونوراً ، حتى ليحسب من براه — أول وهلة — أنه من أولياء الله الصالحين .

ولم يكذب بحبيبه حتى خف إليه التاجر مُرحباً بمقدمه ، متبركاً بلثم يده ، يسأله أن يأمر فيطاع .

فهمس الشيخ « أبو تميم » في أذن التاجر يخبره بما اجتمع عليه أمره من يذل في سبيل الله . فقد اعترم أن يشتري منه كل صباح لحم خروف بدينار ليفرقه على طائفة من المحتاجين . ثم أعطاه — من فوره — ديناراً لامعاً مشرق الجدة . وانتهزها التاجر فرسة للتبرك بنقود هذا الشيخ الصالح ، فاعترم أن يدخر ديناره حتى ينتهي العام ، فيشتري بها ما يحتاج إليه من ماشية وأغنام ، فأسقط الدينار من ثقب في أعلى درج خفي . وجرى كلاهما على عادته : يشتري الشيخ كل يوم خروفاً بدينار ، ويضعه الجزار في صندوقه ، حتى إذا أنشرف العام على نهايته ، فتح التاجر درج النقود المدخرة ، فهاله ما رأى ، وفزع أنه أن يجد أوراقاً صُفراً مستديرة — بعدد أيام السنة — مكان الدنانير الصفر الجديدة التي أخذها من الشيخ .

وسرعان ما تبين التاجر جلية الأمر ، وعرف حقيقة الشيخ وأدرك أنه مدلس كبير وساحر خطير ، فترص به وهو يكاد يتميز من الفيظ ، حتى إذا أقبل « أبو تميم » اندفع إليه الجزار ساخباً لاعتكاً مشهراً بسوء فعلته .

وثمة عرف الساحر أن أمره انفضح ، وسرته وضح . فهمس في أذن التاجر مستعظماً برجوه أن يخفض من صوته حتى لا يسيء إلى سمته ، واعدأ إياه بمكافأة سنوية عاجلة إذا صفح عن زلته ، وتجاوز عن إساءته . فلم يزد الجزار إلا تمادياً في صياحه وتشهيره ، ووعيده ونكيره . وأقبل الناس محاولون أن يهدئوا من ثورته الجامحة وهو آخذ بتلايب خصمه ، معلن في هياجه ، متماد في لجأجه ، حتى إذا ينس الشيخ من صفح التاجر قال له منذراً متوعداً بصوت ثائر ، مجلجل في أجواز الفضاء كأنه الرعد القاصف : « لقد صبرت عليك طويلاً ، فلم تزد إلا تمادياً وإصراراً ، فأعلم أن لكل شئ آخر ، وأن للحلم حداً لا سبيل إلى تجاوزه . وإنى منذرك — على ملا من الحاضرين — أنني معلن ما خفي من أسرك ، ومذيع ما بطن من سررك ، إذا لم تكف عن هذيانك وخرافاتك ، وتقلع عن إساءتك وتُرْهَانِكَ » فاشتد غيظ التاجر على الساحر وقال له في تهكم الساحر :

معجب حين قال أولها للثاني مفاخرًا بلباقته وسرعة خاطره :  
 ما دخلت مازقًا قط إلا عرفت كيف أخرج منه « وكيف أجابه  
 معاوية بقولته الحكيمة : « أما أنا فما دخلت مازقًا قط » .  
 وقد وعيت قصة الساحر وحكمة « معاوية » ، منذ عرفت  
 الحياة ، فانتفعت بهما أيما انتفاع .

\*\*\*

أذكر على سبيل المثال أنني كنت أمشي - ذات يوم -  
 في القلاة ، فأحسست ونعمَ خطوات تقترب مني ، فأرهفت أذني  
 - دون أن ألتفت إلى الورا - فسمعت همسًا أدركت منه :  
 أن اصين يأتمران بسرقتي . وليس مني شيء يسرق غير الحمار .  
 فلم ألتفت إليهما خشية أن يصيبني منهما مكروه ، وتشاغلت  
 بمحاذنة نفسي تارة وبالفتاء تارة أخرى ، حتى أهبط لها الفرصة  
 لسرقة الحمار . وشعرت أن أحد اللصين ينفك مقود حماري ، ثم  
 يضمه في عنقه ويسلم الحمار إلى صاحبه .

فتضايت ومشيت - على عادتي - متبهاً حتى دأبت  
 المدينة ، واقتربت من الممران . فالتفت إلى الخلف ، وإذا بالاص  
 الخبيث مكان حماري الطيب القلب ، والقود في عنقه ، وهو  
 يمشي خفي .

فتظاهرت بالحيرة والدهش ، وسألته متبهاً لأهيه له الجواب :

« من أنت ؟ وأين حماري ؟ وكيف حلت مكانه ؟ » .  
 فأجابني متخابئاً : « إن قصتي أيها السيد الكريم ، لا تكاد  
 تصدق لمراتبها ، فأنا آدمي مثلك ، ولكنني غلوت في الإساءة  
 إلى أمي - فيما مضى من الزمان - فلما نفذ صبرها ، واشتد  
 غيظها علي ، ابتهلت إلى الله داعية أن يمسخني حماراً فاستجاب  
 الله دعاءها .

فخرجت من البيت هائماً في الطريق ، فلقيني بعض الأشرار ،  
 فأسرع بي إلى السوق وباعني لك . ومازلت أخدمك - في أمانة  
 وإخلاص - إلى اليوم ، ولعلي بذلك قد كفرت عما أسلفته  
 لأمي من إساءة .

وقد رأيتني الآن أسترد آدميتي ، فشيت خلفك مطرماً  
 مفكراً فيما لقيت من محائب الحياة . وأغلب الظن أن أمي قد  
 عاودها رضاها عني ، فراخت تستغفر الله لي حتى استجاب دعاءها

« وأيُّ تهمة يستطيع مثلك أن يمزوها إلي ؟ » .  
 فأجابه الساحر في جرأة سافرة ، ووقاحة فاجرة ، وقد جمع  
 كيدته وسحره ، وحشد مكره وغدره :  
 « أستطيع أن أعلن لهم حقيقتك وأفضى إليهم بما تقرفه  
 من فنون الاجرام وكبائر الآثام ، فأدلمهم على ما تخفيه في الصندوق  
 من رهوس الآدميين الذين تذبجهم كل يوم لتبيع الناس لحومهم  
 بعد أن نخني رهوسهم » .

ولم يكفد الساحر يتم فريته حتى أسرع الناس إلى دكان  
 الجزار فرأوا مصداق ما اقترأه الساحر بعد أن خيل لهم سحره  
 أن لحوم الخراف المعلقة لحوم بشرية ، والرؤوس التي في الصندوق  
 رؤوس آدمية . ولم يتالكوا من فرط غيظهم أن ينهالوا على  
 التاجر سباً وشتماً وضرباً ولكاً ، حتى إذا أغمى عليه رآها  
 الساحر فرصة سانحة للهرب ، قنسل إلى بيته ناجياً بعد أن  
 أفلحت مكيدته ونجحت دسيته .

وذاعت قصة التاجر ، فأقبل القاضي عليه ، بعد أن زال سحر  
 الساحر ، فلم ير إلا خرافاً معلقة لحومها على باب الدكان . فلما  
 فتح الصندوق لم ير إلا رؤوسها . ولما أفانق التاجر عرف القاضي  
 منه تفصيل ما حدث . فأدرك - حينئذ - براءته من تلك التهمة  
 النكراء ، والخزبة الشنماء ، بعد أن هدم شرفه ولوثت سمته .  
 ولم يلبث أن ذاع صيت هذا التاجر بين الناس ، بعد أن رأوا من  
 المظاهر الكاذبة ما أقنعهم بأن الشيخ جان أئيم ، وشيطان رجيم ،  
 وإن دلَّ بخبره على أنه محسن رحيم وملك كريم .

\*\*\*

مات هذا التاجر المحسن اليوم - بعد أن مرَّ على قصته  
 ربع قرن - وكان مشيئته إلى قبره يذكرونها متمججين لما  
 أصابه من كيد الساحر الأفاك . أما أنا فقد وعيت قصته منذ  
 طفولتي ، فلم أتبع في مثل هذه الورطة مع أحد من الأشرار  
 - وما أكثر ما لقيت منهم - فقد وجدت في التناهي مهرباً  
 من الاشتياك معهم في صراع قلَّ أن ينتهي بخير .

وقد آرت أن يهمني الأغرار بالنفلق على أن أزج بنفسي  
 في عُجْرَجَات لا أدري كيف أخرج منها .  
 وطالما ذكرت مدار بين عمرو بن الماس ومعاوية من حوار

صرة أخرى ، نخلت عنى ثوب الحمارية ، واسترددت من فوري ثوب الآدمية .

ترى كيف أجيب هذا الألبان ؟

تمثلت في الحال قصة الساحر والتاجر ، فلم أجد لي مندوحة عن التظاهر بتصديق هذا الكيذبان الماكر . فقلت له متبالمها : « حسبك ما لقيت من عقاب إلهي ، فهل تهادني على أن تتحرى مرضاة أمك ، وأن تبذل في هذا السبيل قصارى جهدك » ففاعدني اللص على ذلك ، وهو يحسبني - لغبواته - أكبر مغفل لقيه في حياته .

\*\*\*

واستيقظت قبيل الفجر ذات ليلة على صوت لص ، فصبرت عليه حتى سرق كل ما في البيت من متاع ، ونسلت في أثره مقتنياً خطواته - وهو لا يراني - حتى بلغ داره . فلم يكده يراني حتى تملكه الدهش والحيرة . فنظر إلى يسألني : كيف جئت إلى هنا ؟

فقلت له مداعباً : « جئت لأعرف الدار الجديدة التي انتقلت إليها » .

فاستظرف إجابتي ، واستحسن دعائي ، ورد إلى أمات بيتي ولم ينلني منه أذى بعد ذلك اليوم .

\*\*\*

وشمرت ذات ليلة بلص يقتحم داري فاستولى على الخوف ، وأسرت إلى خزانة صغيرة فاخترت فيها بين ثياب الفرس ، وكنت أعلم أن الدار خالية والحمد لله مما يسرق . وقد بحث اللص طويلاً فلم يظفر من بجنه بطائل . وهم بالخروج ، ولكن خاطراً دفعه إلى فتح الخزانة ، فلما رأى صاح في غاضباً :

« مالي أراك مختبئاً ؟ » فليجأت إلى الدعابة قائلاً : « لقد أخجلتني أنك لم تظفر بما يستحق السرقة في داري فاخترت في هذه الخزانة ولم أجرؤ على مواجهتك » . فضحك اللص مما سمع وكفاني شره وأذاه .

\*\*\*

وشمرت بلص من الأشرار يسرق متاع داري ذات ليلة ، فتشجعت وقلت له مداعباً :

« ما أضيع ببحثك أيها السيد الكريم ! إنك تحاول عبثاً أن تثر في ظلام الليل الخالك على شيء تسرقه من داري . ولقد حاولت ذلك من قبلك في رابعة النهار ، فلم أر شيئاً في الدار » . ألا ليت الناس يذكرون دائماً قولة صديقي الأملح الحكيم عبد الله بن القفح : « إن الماء يبلغ - مع ليونته - ما لا تبلغ النار مع شدتها »

عبد الله ميمبا

طامل كيموني

وفق الأسفل :

ثم لقيت حماري بعد أيام بييمه اللسان ، ولم أكد أدانيه حتى اختفى أولها الذي لقيته منذ أيام ، وأسلم الحمار إلى شريكه أيم بييمه . فدنوت من الحمار ثم نظاهرت بأني أسرت في أذنه حديثاً موجزاً . فاشتدت دهشة الناس مما رأوا . ودفعهم الفضول إلى سؤال عما همست به في أذن الحمار . فقصصت عليهم قصتي بسمع من اللص ، ثم ختمتها قائلاً :

وهأنذا أجد صاحبي قد خالف عهده ، وأغضب أمه مرة أخرى ، فلم يلبث أن عاودته حماريته وزابلته آدميته . فلم أتمالك أن أسررت في أذنه معاتباً :

« لقد حذرتك - يا صاحبي - هذه العاقبة ، فلم تسمع . فلا تلومن إلا نفسك » . ولم يكده الحاضرون يستمعون إلى هذه القصة حتى استغفروا ( أي : أغرقوا في الضحك ) .

\*\*\*

وشمر اللص الأفاك بالمرج ، فتسلل هارباً وترك لي حماري ، فمدت به إلى داري ، وقضيت يومى راضياً مجبوراً ، قرير العين مسروراً .

وسرق بعض الأشرار مقود حماري ، فبحثت عنه طويلاً فلم أجده . وبعد أيام رأيته معلقاً في رأس حمار أكبر من حماري . فلم أكد أقرب منه حتى رأيت صاحب الحمار - وكان شريراً فاتبك معروفاً - ينظر إلى شزراً .

فتذكرت قصة الساحر والتاجر ، وقلت متظاهراً بأني أحدث نفسي : « باللمجب العاجب ! هدا رأس حماري ، ولكن ما بال جسمه قد تغير » .